الدعوة إلى تعميم القوانين اللغوية الحديثة على اللغة العربية

الباحثة/ نوف بنت عمر بن سالم بانقيطة

ماجستير في اللغويات

جامعة أم القرى

تُشكل اللغة العربية الفصحى فخراً للعرب والمسلمين نظرا لكونها لغة القرآن الكريم الذي تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظه من الضياع والتحريف. يقول تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[١] كما يقول جل جلاله (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)[٢].

وقد ساهمت هذه اللغة الحية في بناء موروث ثقافي زاخر على مر العصور، ومع قدوم الحركات الاستعمارية وانتشارها في بلاد العرب، تعالت الأصوات المطالبة بضرورة إعادة النظر في اللغة العربية بحجة تجديدها ومواكبتها لمتطلبات العصر. واتخذت هذه المحاولات أشكالا عديدة منها ما دعا إلى استخدام العامية بدل الفصحى ومنها ما نادى بتبسيط قواعد النحو والصرف العربي ومنها ما طال الخط والحروف العربية واقترح استخدام الحروف اللاتينية بدلها كما حصل مع اللغة التركية.

[١] سورة الحجر: الآية ٩.

[٢] سورة يوسف: الآية ٢،

وتزعم هذه المحاولات في البداية مجموعة من المستشرقين مثل ولهلم سبيتا[١]، اللورد دوفرين[٢]، كارل فولرز[٣]، مور هاريس[٤]، وليم ولكوكس[٥] الخ. ومن ثم أيدهم مجموعة من المفكرين العرب مثل عبد العزيز فهمي[٦]، سلامة موسى[٧]، أحمد لطفي السيد، طه حسين ...الخ.

وقد لقيت هذه المحاولات الهادفة إلى هدم اللغة العربية تصديا واستنكاراً في أغلب أقطار الوطن العربي ولكنها نجحت مع ذلك في تحقيق جزء كبير من أهدافها وهو ما نلحظه أساسا في ميدان السينما، المسرح والإعلام حيث سيطرت اللهجات العامية بشكل واسع وتغلغلت عميقا في ثقافة الجمهور.

غير أن استهداف اللغة العربية الفصحى لم يقف عند هذه الحدود بل تجاوزها ليبحث عن وسائل ومداخل جديدة تمكنه من تقويض أسس الموروث اللغوي العربي تحت غطاء التجديد. من هنا، ظهرت تيارات تدعو إلى تطبيق النظريات والمناهج الحديثة في علوم اللغة والتي هي في أصلها غربية المنشأ.

---

[١] Wilhelm Spitta صاحب كتاب "قواعد العربية العامية في مصر" وهو أول من دعا إلى الكتابة باللغة العامية واستبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني سنة ١٨٨٠م، وكان يعمل مديراً لدار الكتب المصريّة آنذاك.

[٢] المبعوث الشخصي لملكة بريطانيا إلى مصر سنة ١٨٨٣م. أوصى باستخدام العامية المصرية كلغة رسمية للتدريس.

[٣] K.Vollers تولى إدارة دار الكتب المصرية خلفاً لولهلم سبيتا. صاحب كتاب"اللهجة العربية الحديثة". دعا إلى العامية والحرف اللاتيني.

[٤] More Hares له كتاب بعنوان "مصر تحت حكم المصريين". ادعى أن اللغة العربية الفصحى لم تعد ملائمة لروح العصر مثل اللاتينية.

[٥] ألقى محاضرة بعنوان"لماذا يفتقد المصريون القدرة على الإبداع "والجواب برأيه: لأنهم يتمسكون باللغة العربية الفصحى، وأن اللغة العربية الفصحى لا تصلح للإبداع.

[٦] كان عضوا في مجمع اللغة العربية في مصر. دعا إلى استخدام الحروف اللاتينية بدل العربية وطرح فكرته هذه في الجلسة التي عقدها مجمع اللغة العربي في ٣ مايو سنة ١٩٤٣م.

[٧] صاحب كتاب "اليوم والغد". أعلن أن المصريين ليسو عربا وليسو شرقيين أصلا ودعا إلى استخدام العامية بدل الفصحى.

وقد ساهم تطور علم اللسانيات في تحقيق هذا الأمر بشكل كبير ووجدت اللغة العربية نفسها مجدداً أمام خطر يدعو إلى تعميم القوانين اللغوية الحديثة عليها لتصبح أكثر علمية وأكثر قدرة على مواكبة تطورات العصر.

ولكن الغريب في الأمر أن العربية الفصحى قد تمكنت لثلاثة عشر قرنا متواصلا من أن تكون لغة الأدب والعلم و أدت دورها بشكل متميز لتضحى فجأة غير مواكبة للتطور وغير قادرة على استيعاب متطلبات العصر وتصبح كلماتها، قواعدها وخطها مصدر إشكال وتعقيد حتى أن البعض أصبح يعتبرها من بين أسباب تخلف العرب والمسلمين !.

وقد أصبح البعض يتحدث عن اللغة العربية المعاصرة تقليداً لما نراه في بعض اللغات الأخرى مثل الإنجليزية Modern English, Contemporary English. وتعبر هذه المصطلحات عن حقيقة موجودة في اللغة الإنجليزية، حيث يعجز الإنجليزي من غير المتخصصين في اللغة عن فهم الإنجليزية القديمة نظرا للتغيرات الكبيرة التي طرأت عليها. هذا الأمر لا نجده في اللغة العربية، فحتى إن صعب فهم بعض الكلمات إلا أن المعنى العام يبقى واضحا بالنسبة للقارئ.

وفي واقع الأمر، فإن الانتقاد المبني على النظريات اللغوية الحديثة قد مس مختلف جوانب اللغة العربية مثل أدلة النحو (السماع، القياس، الإجماع واستصحاب الحال) والكليات في النحو العربي (الإعراب، العامل، العلة ونظام الجملة). وقد تميز موقف أغلب علماء اللغة المحدثين بالرفض والتشكيك في دراسات علماء اللغة الأوائل ما عدا البعض منهم. ويعود هذا الموقف السلبي إلى عدة عوامل لعل من أبرزها التأثر الكبير بنظرة الدراسات الغربية للغة، سوء فهم النصوص اللغوية القديمة، الترجمة الخاطئة في كثير من الأحيان، سوء تقييم الموروث اللغوي العربي والاعتماد على الأحكام المسبقة، تحكيم النظريات الحديثة التي مازالت في مرحلة التطور والتي لم تكتشف حدودها وعيوبها بشكل كامل بعد، الرغبة في الظهور والتميز ومخالفة رأي السابقين الخ.

وكمثال على موقف القوانين اللغوية الحديثة من اللغة العربية يمكننا الوقوف عند مسألة الإعراب، حيث أنكرها الكثير من علماء اللغة المحدثين مثل فولز بدعوى أن لهجة قريش التي نزل بها القرآن لم تكن تعتمد على الإعراب الذي لم يظهر إلا في مرحلة لاحقة حسب رأيه. وقد اتبعه في ذلك كثير من الباحثين العرب مثل إبراهيم أنيس.

من جانب آخر، عمد بعض الباحثين المحدثين إلى تحليل الأمور بطريقة أكثر موضوعية من خلال تأكيدهم على أن النظريات اللغوية الحديثة خاصة في اللسانيات تعيش أزمة منهج في العرض والتطبيق والحوار مع الموروث العربي في علوم اللغة، "فقبل أن تتجذر الثقافة اللسانيّة في المجتمع العربي كان بعض رواد اللسانيات في العالم العربيّ يوجّهون سهام نقدهم إلى النحو العربي، والصرف العربي، والمعجم العربي باسمِ علمِ اللسانيات، فثار معظهم على نظرية العامل والعلل والإعلالِ والإبدال والصناعة المعجمية التقليديّة، وهذا الأمر يمكن أن نتبينه بوضوح في الأعمال الأولى لإبراهيم أنيس وتمام حسان ومهدي المخزومي وعبد الرحمن أيوب وكمال بشر وأنيس فريحة". وقد دعا هؤلاء إلى الاستفادة من علوم اللغة الحديثة واستيعابها بطريقة صحيحة بغية تسخيرها لخدمة اللغة العربية وليس لتدميرها.

ولعل التمعن في علم الأوائل يبرز بشكل واضح أنهم قد تمكنوا من النفاذ إلى مسائل لغوية دقيقة ومقاربة مجموعة من القضايا التي تعد من اختصاص علم اللغة الحديث مثل ابن جني الذي اعتبر اللغة مجموعة من الأصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، وكذلك تمييز علماء آخرين بين الكلام واللغة وهو ما ذهب إليه دي سوسير حديثاً.

إن لغتنا العربية الفصحى تعتبر في أشد الحاجة اليوم إلى اهتمام جدي ينبع من رغبة فعلية في الحفاظ على موروثنا اللغوي والثقافي والوقوف أمام المحاولات الهادفة إلى تقويضه. ولنا أن نتذكر دائما بأن " تعلم قواعد اللغة العربية، وإن كان فيه بعض الصعوبة، ليس بالأمر غير الممكن؛ فتعلم قوانين وأحكام اللغة يكون ملكة لسانية صحيحة لدى المتكلم. والحقيقة أن اللغة ينبغي أن تصبح ملكة".

كذلك تجدر الإشارة إلى أن الاستفادة من علوم اللغة وقوانينها الحديثة أمر مشروع ومقبول غير أنه يجب أن يكون في غاية من الدقة والموضوعية حتى يخدم تطور اللغة العربية ولا يكون سلاحاً موجهاً ضدها.

قائمة المراجع والمصادر:

- بلقاسم دفه، النحو العربي بين التقليد والمناهج اللسانية الحديثة، مجلة الأثر، العدد الخامس، الجزائر، مارس ٢٠٠٦ م.
- حسن خميس الملخ، في "أسئلة اللغة أسئلة اللسانيات"، منشورات الاختلاف، ٢٠٠٩.
- مطير بن حسين المالكي، موقف علم اللغة الحديث من أصول النحو العربي (رسالة ماجستير)، جامعة أم القرى، ١٤٢٢ هـ.
- نسيمة نابي، مناهج البحث اللغوي عند العرب في ضوء النظريات اللسانية (رسالة ماجستير)، جامعة مولود معمري، الجزائر، ٢٠١١.
- محمد محمد حسين، أزمة العصر، دار عكاظ، ٢٠١٠.
- محمد محمد داود، العربية وعلم اللغة الحديث،دار غريب، القاهرة، ٢٠٠١.
- وليد قصاب، من جنايات علم اللغة الحديث على العربية الفصحى، الألوكة، ٠٩-٠٩-١٤٢٩ هـ، *الرابط الالكتروني:*
- http://www.alukah.net/Web/alkassab/٠/٣٤٨٧/#ixzz٢PbPMJEDT، الاستشارة بتاريخ ٢٠-٠٥- ١٤٣٤ هـ على الساعة ١١:٣٤.
- عبد المنعم عجب الفيا، علم اللغة بين ابن جنِّي وفردناند دي سوسير، سودانايل، ٠٧-٠٤-٢٠١٢ م، الرابط الالكتروني:

http://www.sudanile.com/index.php?option=com_content&view=article&id=٣٨٨٥٩:٢٠١٢-٠٤-٠٧-١٠-٥٣-٥٦&catid=٢٤٥:٢٠٠٩-٠٧-٢٢-١٩-٣٣-٢٢&Itemid=٥٥.

الاستشارة بتاريخ ٢١-٠٥- ١٤٣٤ هـ على الساعة ١٥:٠٧.